

من صحابة الرسول

المجموعة الثانية

٩

عُكْرَمَةُ
بْنِ أَبِي جَهْلٍ

فانيس محمد عزت

عكرمة بن أبى جهل

فى يومٍ من أيام الصيفِ الحارّةِ ، خرجَ أيمنُ وأبوه وإخوته يتنزّهونَ فى إحدى الحدائقِ ، لينعموا بجوّها الصّحو ، وهوائها المنعشِ العليل .

فبعدَ أن تعبوا من الجرى واللّعب ، جلسوا لينالوا قسطاً من الرّاحة ، ويتناولوا بعضَ المأكولات الخفيفة .
وعندها التفتَ أيمنُ إلى والده وقال :

— عودتنا يا أبى أن تقصَّ علينا بين يومٍ وآخرَ قصصَ الصّحابةِ الأوائل ، ومواقفهم العظيمة التى نعجبُ بها .

فهل نطمع أن تقصَّ علينا الآن إحدى هذه القصص ؟

قوبلت فكرةُ أيمنَ بتأييدٍ من أخيه محمود وأخته هدى وقالوا : نعم يا أبى ، نرجو أن تقصَّ علينا قصةً واحدٍ من الصّحابة .

قال والدُّهُم : ما دامَ هذا مطلبُكم جميعاً ، فاسمَعُوا
الآنَ قِصَّةَ عِكرِمَةَ بنِ أبى جَهل .

استنكَرَ مَحْمُودٌ ما قال والدُّهُ وقال : نُريدُ يا أبى أن
نستمعَ إلى قِصَّةِ أَحَدِ الصَّحابةِ الأفاضل ، وليسَ إلى
قِصَّةِ أَحَدِ أعوانِ الكُفْرِ والعِصيان .

فابتسمَ والدُّهُ وقال : ومن أخبرَكَ أنَّ عِكرِمَةَ لم يكنْ
من الصَّحابةِ الأفاضل ، ولم تكنْ له مَواقِفُ مَشهُودَةٌ فى
الإسلام ؟

فاستعجَبَ الإخوةُ جميعاً لِقَولِ أبيهِم ، وأيَّدَ أبوهُم
كلامَهُ قال : نعم كانَ عِكرِمَةُ من أَكثَرِ الكُفَّارِ عِناداً
وشراسةً وضراوةً ، وأشدَّهُم كَراهَةً لِمُحمَّد - صَلَّى اللَّهُ
عليه وسلَّم - وللإسلام ، ولكن انظُرُوا يا أبنائى ماذا
كانَ من أمرِهِ ، وكيف خَتَمَ حَياتِهِ شَهِيداً فى مَيدانِ

الْقِتَالِ ، وَكَيْفَ قَدَّمَ رَوْحَهُ رَاضِيًا فِي سَبِيلِ نُصْرِهِ
الْإِسْلَامِ .

وَاسْتَطَاعَ الْأَبُ بِذَلِكَ أَنْ يَشُدَّ انْتِبَاهَ أَبْنَائِهِ إِلَى قِصَّةِ
عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ ، وَوَجَدَهُمْ مُشْتَاقِينَ لِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ
أَمْرِهِ ، فَرَأَى أَنَّهُ يَحْكِي لَهُمْ قِصَّتَهُ ، قَالَ :

- كَانَ عِكْرِمَةُ مِنْ أَكْرَمِ بُيُوتِ مَكَّةَ وَأَعَزِّهَا وَأَكْثَرِهَا
مَالًا ، وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِ فُرْسَانِهَا ، وَأَبُوهُ الْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ
أَحَدَ زُعَمَائِهَا ، وَكَلِمَتُهُ مَسْمُوعَةٌ فِي قِبَالِ الْعَرَبِ .

وَعِنْدَمَا بَدَأَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - يَدْعُو إِلَى نَبْذِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَعِبَادَةِ اللَّهِ
الْوَاحِدِ الْأَحَدِ ، دَفَعَتِ الْحَمِيَّةُ الْقَبِيلِيَّةُ وَالْخَوْفُ مِنْ فَقْدَانِ
السُّلْطَةِ وَالنُّفُوزِ وَالْغِنَى ، الْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ
أَعْدَاءِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَكَانَ هُوَ زَعِيمَ
الشَّرِكِ الْأَوَّلِ ، فَعَادَى الرَّسُولَ أَشَدَّ الْعِدَاءِ ، وَأَنْزَلَ

أشدُّ أنواعِ العذابِ بأصحابه ، وكانَ منَ الطَّبيعِيَّ أنَ يتبعَهُ في ذلكَ ولَذُهُ عِكرِمَةٌ ، فكانَ يَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَسَوَطُهُ الَّذِي يَضْرِبُ بِهِ ضِعَافَ المُسلمينَ ، حتَّى أصبحَ عِكرِمَةٌ مِثْلَ أبيه منَ أَشْهَرِ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ ، وَأَشَدِّهِمْ عَدَاوَةً لِلإِسْلَامِ .

قالَ مَحْمُودٌ : إِنَّ ما قامَ بِهِ الحَكَمُ بَنُ هِشامٍ لَصَدِّ النَّاسِ عن دينِ اللَّهِ ، تَحْتَاجُ حِكايَتَهُ لساعاتٍ وساعاتٍ ، حتَّى إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على الرُّغْمِ من حِلْمِهِ وَسَعَةِ صَدْرِهِ ، لم يَمْنَعْ أَصْحَابَهُ منَ إطلاقِ اسمِ أبي جَهْلٍ عَلَيْهِ ، ومُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ عُرِفَ الحَكَمُ بَنُ هِشامٍ بِاسمِ « أَبِي جَهْلٍ » .

قالَ وَاللَّهِ : صَدَقْتَ يا مَحْمُودُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ وَتَعَالَى ، أَرادَ أَنْ يَلْطَفَ بِعِبَادِهِ المُسْتَضْعِفِينَ ، وَيُريحَ المُسْلِمِينَ منَ ظُلْمِهِ وَجَبْرَوْتِهِ ، فَكانَتْ نِهايَتُهُ في يَوْمِ بَدْرٍ .

وقد عَرَفْتُمْ بِالطَّبْعِ قِصَّةَ الْقَافِلَةِ الَّتِي أَرَادَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهَا ، وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ أَبُو سُفْيَانٌ أَنْ يَنْجُو بِهَا ، وَكَيْفَ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي جَيْشٍ كَبِيرٍ لِمُلَاقَاةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَرَجَتْ إِلَيْهِ بِكُلِّ زُعْمَانِهَا وَصَنَادِيدِ الْكُفْرِ بِهَا . وَكَانَ الْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ وَابْنُهُ عِكْرِمَةُ ، عَلَى رَأْسِ هَذَا الْجَيْشِ . وَإِنْ كَانَ أَبُو جَهْلٍ يَرَى أَنَّهَا مُجَرَّدُ نَزْهَةٍ وَلَيْسَتْ حَرْبًا ، فَأَقَامَ الْاِحْتِفَالَاتِ ، وَنَحَرَ الْإِبِلَ ، وَسَقَى الْخُمُورَ .

وَكَانَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِلْحَكَمِ بِالْمِرْصَادِ ، فَقَتَلَ بِأَيْدِي الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ طَالَمَا أَهْبَ ظُهُورُهُمْ بِسَوَاطِهِ .

قَالَتْ هَذِي : وَمَاذَا عَنْ عِكْرِمَةَ ؟ مَاذَا جَرَى لَهُ فِي الْمَعْرَكَةِ ؟

قال والدها : استطاع عكرمة أن ينجو بنفسه ، ففر بعد أن رأى مصرع أبيه أمام عينيه ، مما دفعه لأن يحتل مكان أبيه ، ويحفزه لأن يقتل محمداً انتقاماً لمقتله .
تعجب أئمن فقال : إنها بداية سيئة لا تبشر بقصة صحابي مُخلص .

قال والده : هذا جزء من كل . فقد كان له الكثير من المواقف التي أظهر فيها أشد العدا والكراه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللدين الإسلامي .
ففي يوم أحد ، تولى ميسرة جيش المشركين ، وها هو ذا يُشارك في حصار الخندق ، ولم يكتف بحصار الخندق وإنما يحاول اجتيازه هو وبعض المشركين ، ولكن سيوف المسلمين كانت لهم بالمرصاد ، ولم يُنجه إلا الفرار .

ويَوْمَ الْفَتْحِ الْأَكْبَرِ ، يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ، لَمْ يَخْضَعْ عِكْرِمَةُ
وَيَرْضَى بِدُعَاءِ أَبِي سُفْيَانَ : مَنْ دَخَلَ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ .
بَلْ فَضَّلَ الْقِتَالَ وَالِدِفَاعَ عَنْ دِينِ أَجْدَادِهِ لِأَخِرِ لَحْظَةٍ ،
فَجَمَعَ فِتْيَانَهُ وَجُنُودَهُ مِنْ بَنَى مَخْزُومٍ لِمُلَاقَاةِ الْمُسْلِمِينَ ،
فَتَصَدَّى لَهُمْ سَيْفُ اللَّهِ الْمَسْلُوبُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَلَقْنَهُمْ
دَرَسًا عَظِيمًا ، فَلَمْ يَجِدْ عِكْرِمَةُ بَدَأًا مِنَ الْفِرَارِ مِنْ مَكَّةَ ،
خَاصَّةً بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
عَفْوَهُ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، مُسْتَثْنِيًا مِنْهُمْ جَمَاعَةً قَلِيلَةً ، عَلَى
رَأْسِهِمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ، فَقَدْ أَحَلَّ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دَمَهُ . فَتَوَجَّهَ عِكْرِمَةُ إِلَى الْيَمَنِ ، وَلَكِنْ
الْخَوْفَ دَفَعَهُ إِلَى مُوَاصَلَةِ الْهَجْرَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ .

اسْتَقَلَّ عِكْرِمَةُ السَّفِينَةَ إِلَى الْحَبَشَةِ ، وَهُنَاكَ كَانَتْ
اللَّحْظَةُ الْحَاسِمَةُ فِي حَيَاتِهِ ، لَحْظَةُ أَنْتِقَالِهِ مِنْ ظُلْمَةِ
الشَّرِكِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ .

اشتد انتباه الأولاد ، وتساءل أيمن : ماذا حدثَ
يا أبى ؟ ماذا يُمكن أن يُغيّر عقيدة شخصٍ مثل
عكرمة ؟

قال والده : هبت في أثناء رحلته إلى الحبشة ، ريحٌ
عاصفةٌ شديدة ، كادت تُؤدّي إلى غرق السفينة بمن عليها .
ولما نادى الربّان الحبشى : اخلصوا نياتكم لله ، فإنَّ
آلهتكم لن تُغنى عنكم شيئاً .

فكرَ عكرمة في نفسه : لن يُنجينى فى البحر إلاَّ
الإخلاص ، ولن يُنجينى فى البرِّ غيره .

ورفع يديه إلى السماء داعياً : اللهم لك على عهدٍ إنَّ
أنتَ عافيتنى لما أنا فيه ، لاَ تئنَّ مُحمداً حتى أضع يدي
فى يده ، ولأجدنه عفواً كريماً .

ولطفَ الله العفوُ الكريمُ بعكرمة ، وقبلَ توبته ونجاة
من شدته التي كان فيها ، ليصلَ إلى مكة ويُعلنَ إسلامه ،
ويبدأ حياةً جديدةً .

قالت هدى : لقد أكرمَه الله سبحانه وتعالى من
الغرق ، فإن كان قد ماتَ عندئذٍ لكانت عاقبته النارَ لا
شكَّ .

قال والدها : نجا عكرمة ، ولكنه بقي مُتَحِيرًا . كيف
يصلُ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبأى
وجهٍ يُقابله بعدَ كلِّ ما كان منه من صدٍّ عن دينه
وغداون له ولأصحابه ؟

وحدثت المفاجأة ، وقابلَ زوجته - أم حليمة -
وكانت قد أسلمت يومَ الفتحِ واستأمنتِ الرسولَ -
صلى الله عليه وسلم - على زوجها ، فأمَّنها عليه ،

فخرجت تبحث عنه حتى إذا وجدته بادرته بقولها :
 جنتك من عند أفضل الناس وأكرمهم ، وقد أمنتك .
 وفي مكة هاب عكرمة لحظة اللقاء . وعند باب
 الرسول لقي من العفو والسماحة والمحبة ، كل ما لم
 يخطر على باله . فقد خرج إليه - صلى الله عليه وسلم
 - فعانقه وقال : مرحبا بالراكب المهاجر .

وسأله عكرمة عما يجب عليه أن يفعله ليسلم ، فقال
 - صلى الله عليه وسلم - تقول : أشهد الله وأشهد من
 حضر أنى مسلم مجاهد مهاجر .

عندئذ سأله - صلى الله عليه وسلم - أن يطلب ما
 شاء وسوف يعطاه . فكان طلبه العفو والسماح والتوبة
 والمغفرة .

قال محمود : إن لحظة إسلامه هي لحظة ميلاد جديد له .
 لحظة موت مشرك شقي ضال ، وميلاد مسلم تقى ورع .

ودعا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ كُلَّ
عَدَاوَةٍ عَادَانِيهَا ، وَكُلَّ مَسِيرٍ سَارَ فِيهِ إِلَى مَوْضِعٍ يَرِيدُ
إِطْفَاءَ نَوْرِكَ ، وَاغْفِرْ لَهُ مَا نَالَ مِنْ عَرَضِي فِي وَجْهِهِ ،
أَوْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهُ .

فتَهَلَّلَ وَجْهَ عِكْرِمَةَ فَقَالَ :

- أَمَّا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَدْعُ نَفَقَةً أَنْفَقْتُهَا فِي
الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِلَّا أَنْفَقْتُ ضَعْفَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
وَلَا قِتَالًا قَاتَلْتُهُ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِلَّا قَاتَلْتُ
ضَعْفَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَتَحَوَّلَ عِكْرِمَةُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، مِنْ أَكْبَرِ صَنَادِيدِ
الْكُفَّارِ وَأَشْرَسِهِمْ عَدَاوَةً لِلْإِسْلَامِ ، إِلَى مُسْلِمٍ عَابِدٍ زَاهِدٍ ،
يُحَرِّصُ دَائِمًا عَلَى الْعِبَادَةِ وَمُدَاوِمَةِ قِرَاءَةِ كِتَابِ اللَّهِ .

وَوَفَّى عِكْرِمَةَ بَوْعْدِهِ لِلرُّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - فَكَانَ سَيْفًا مِنَ السُّيُوفِ الَّتِي شَنَّهَا الْإِسْلَامُ

على المنافقين والكفار - فحرّص على ملاحقة المنافقين الذين تَسْتَرُوا برداء الإسلام ، خوفاً من القتل .
فما كان منهم إلا أن يُغيظوه بقولهم : هذا عِكرمة ابنُ عدوِّ الله أبي جهل .

وَيَغْضَبُ عِكرمة وَيَشْكُوهُمْ للرَّسُول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيجمعُ الرَّسُولُ النَّاسَ عِنْدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، ويقولُ لهم : لا تَسُبُّوا أباه ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيْتِ يُؤْذِي الْحَيَّ ولا يَبْلُغُ الْمَيْتَ . ولا تقولوا عِكرمة بنُ أَبِي جَهْلٍ ، بل قولوا عِكرمة بنُ عَمْرِو بنِ هِشَامٍ .

وَحَرَّصَ عِكرمة على نَشْرِ الْإِسْلَامِ لِيُكْفَرَ عَمَّا كَانَ مِنْهُ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِهِ ، فما خاضَ الْمُسْلِمُونَ مَعْرَكَةً بعدَ إِسْلَامِهِ ، إِلَّا وَخاضَهَا مَعَهُمْ ، ولا خَرَجُوا فِي بَعْثٍ إِلَّا وَكَانَ مَعَهُمْ .

وقد رَضِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن عِكْرِمَةَ وعن
إِسْلَامِهِ ، واستعملَهُ أخيراً على هَوَازِن .

قالتْ هُدَى : صدقَ المثلُ الَّذِي يَقولُ : يَخْلُقُ من ظَهْرِ
الْفَاسِدِ عَالِماً .

قال أبوها : بَلْ قولِي من ظَهَرَ الكَافِرِ مُجَاهِداً في
سَبِيلِ اللَّهِ .

فقد اشْتَرَكَ في حُرُوبِ الرِّدَّةِ في عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ
الصَّدِيقِ ، واشْتَرَكَ في القَضَاءِ عَلَى مُسَيْلَمَةَ الكَذَّابِ ،
وقَادَ جُيُوشَ المُسْلِمِينَ في عُمانَ حَتَّى أعَادَ للإِسْلامِ
مَجْدَهُ وَعِزَّتَهُ ، ومن عُمانَ إلى مُهْرَةَ ، حَتَّى كَتَبَ اللَّهُ
على هَذِهِ الفِتْنَةِ أَنْ تَنْجَلِيَ وتُمحَى .

وأظْهَرَ عِكْرِمَةَ في يَوْمِ اليرْمُوكِ بُطُولَاتٍ لا يُصدِّقُها
عقلٌ ، فعِنْدَما اشْتَدَّ الكَرْبُ بالمُسْلِمِينَ في أَحَدِ المَوَاقِفِ ،
نَزَلَ عَنْ جَوَادِهِ ، وكَسَرَ غِمْدَ سَيْفِهِ ، وأوْغَلَ في

صُفُوفِ الرُّومِ مُقَاتِلًا . وَعِنْدَمَا حَاوَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ
قَائِدُ الْجَيْشِ أَنْ يُرْجِعَهُ ، قَالَ : لَقَدْ قَاتَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَأَفْرُ الْيَوْمِ
مَنْ الرُّومِ ؟ إِنَّ هَذَا لَنْ يَكُونَ أَبَدًا .

ثُمَّ نَادَى : مَنْ يُبَايِعُ عَلَيَّ الْمَوْتَ . فَبَايَعَهُ عُمَةُ الْجَارِثُ
بْنُ هِشَامٍ ، وَأَرْبَعُمِائَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَاتَلُوا جَمِيعًا مَعَ
عِكْرِمَةَ ، أَمَامَ فُسْطَاطِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ .

وكَانَتْ لِحَظَاتِ رَهِيبةٍ ، أَذْهَلَتْ الْأَعْدَاءَ مِنَ الرُّومِ
حِينَ بَرَزَ عِكْرِمَةُ يُحَصِّدُ الرِّقَابَ دُونَ كُلِّ أَوْ تَرَاجُعٍ .

وَانْتَهتِ الْمَعْرَكَةُ وَنَجَدُهُ هُنَاكَ عَلَى الْأَرْضِ ، شَهِيدًا بَيْنَ
الشُّهَدَاءِ وَالْجُرْحَى : نَجْدُهُ هُوَ وَابْنُهُ عَمْرُو بْنُ عِكْرِمَةَ
مُلْطَخِينَ فِي دِمَائِهِمَا الطَّاهِرَةِ ، أَمَلًا فِي اللَّهِ أَنْ يَكُونَ
قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا سَبَقَ مِنْهُ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْهُ

من إساءة إلى المسلمين . أملاً أن يكون مكانه في فسيح
جَنّاته بين الشهداء والصالحين .

قال أيمن : شكراً لك يا أبى : إنها قصة شائقة حقاً ،
ونشكرك كثيراً لأنك أوضحت لنا موقف عكرمة من
الإسلام ، فدائماً ما تربط اسم أبى جهل بالكفر ، ولم يخطرُ
ببالنا أبداً أن ابنه عكرمة مات شهيداً في سبيل الإسلام .

قال والده : أن الإسلام يا ولدى لا يأخذ أحداً بجريرة
أبيه أو ابنه ، أو أيّاً ما كانت درجة قرابته .

فكلُّ إنسان يُحاسبُ على عمله ، إن كان خيراً فخيرٌ
ياذن الله ، وإن كان شراً فشرٌّ والعياذُ بالله . فعلى كلِّ
إنسان أن يَجِدَّ وَيَجْتَهِدَ ليصل إلى برِّ الأمان ، ويحظى
برضا الله ومغفرته ياذن الله .

والآن خذوا حظكم من اللعب والتريّض ، قبل أن
تعودوا إلى المنزل .